

نوح عليه السلام والسفينة وجبل جودي في الكتب السماوية (دراسة بلاغية في ضوء النصوص القرآنية)

د. كفايت الله همداني
محاضر في قسم اللغة العربية
الجامعة القومية للغات الحديثة إسلام آباد

Abstract

The purpose of narrating stories at different places in the Holy Quran, in addition to the advices & admonitions, is to remind the faithful of the fate of non-believers from the previous nations, so that fear from Allah Almighty stay in his heart.

The repetitive reference of stories in lot of holy verses is a result of addition of beauty & attraction in the style of Quran and despite this repetition, there does not exist any kind of fault & differences and contradiction.

Hazrat Nooh (A.S) is the Holy Prophet of Allah Almighty. He has been mentioned in 21 places in different Parts of the Holy Quran. The story of Hazrat Nooh (A.S) occupies a distinguished place in the stories mentioned in the Holy Quran which is embedded with many aspects of wisdom and admonition.

My paper contains on preamble and four chapters having sub headings.

My first chapter highlights the personality of Hazrat Nooh (A.S). In second chapter the story of Hazrat Nooh (A.S) will be mentioned in the light of "علم البيان". In third chapter the story of Hazrat Nooh (A.S) will be mentioned in the light of "علم المعاني". In fourth chapter the story of Hazrat Nooh (A.S) will be mentioned in the light of "علم البديع".

الحكمة من القصة القرآنية في مواضع متعددة من كتاب الله تعالى هي زيادة العبرة والموعظة والتذكير المؤمن دائماً بعاقبة المكذبين من الأمم السابقة، ليبقى في حالة يقظة وحشية مستمرة وخوف من عذاب الله تعالى ومن جهة ثانية ليبقى في حالة سرور وتفاؤل برحمة الله ووعده وأنه ينجي عباده المؤمنين. إن تكرار القصة في مواضع محددة من آيات القرآن يضيف على أسلوب القرآن جمالية وروعة وبيانا لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله . وبالرغم من تكرار القصة عبر سور القرآن الذي استمر نزوله فترة 23 عاماً ، لا نجد أبداً أي تناقض أو نقص أو خلاف، إذ نحن هنا أمام معجزة لغوية وبيانية تشهد على أن القرآن كتاب الله تعالى. ورد ذكر نوح عليه السلام في إحدى وعشرين سورة من سور القرآن الكريم على درجات من التفاوت فيما بينها من حيث الإجمال والتفصيل في البيان القرآني، وهي مختلفة بحسب ما تكون العناية موجهة نحوه من البيان ومن اللافت أن الناظر في هذه المواضع كلها يظن نفسه أمام قصة يضرب فيها المثل على التكرار خاصة في تلك التي اعتنت بذكر قصته عليه السلام.

وإن قصة نوح عليه السلام من القصص العظيمة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وهي مليئة بالدروس والعبر التي نستفيد منها وإن بعض السور القرآنية الكريمة تتمحور للسرديات بحيث توظف السورة بأكملها للعنصر القصصي ولعل سورة

نوح تجسّد هذا النمط من السور حيث لا تسبقها و لا تلحقها أية نصوص غير قصصية أو ممدّدة.

هذه المقدّمة القصصية تكشف لنا أنّ مواقفها و أحداثها تحوم على عمليّة إنذار و باشر، و على عقاب متوقع في حالة عدم جدوى الإنذار. و فعلاً، لو تابعتنا القصة بأكملها لوجدناها تستغرق السورة التي خصّصت لهذه القصة كؤلها مواقف حافلة بالإنارة تمت بنزل العقاب الذي اكتسح القوم و استأصلهم أساساً .

المبحث الأوّل : أهمية قصة نوح عليه السلام

ذكرت قصة سيدنا نوح في كثير من سور القرآن الكريم: بعضها أشار إليها أثناء الحديث عن القوم المكذبين أو الأنبياء المؤيدين وبعضها ذكر قصته مفصلة بعض أحداثها.

من أمثلة القسم الأوّل: ما ورد في سورة النجم: 50-52، و(ص): 12، والذاريات: 46، والحاقة: 11-12، والأنبياء: 76-77.

هذه السور أشارت إلى قصته أثناء التمثيل على القوم الظالمين . عدا سورة الأنبياء ذكرتها أثناء الحديث عن تأييد الله تعالى للأنبياء ..

وإنك عندما تستعرض هذه الآيات لن تجد تشابهاً بين أي آيتين منها بل كل آية أتت بجديد غير موجود في الآيات الأخرى. أما السور التي تحدثت بشيء من التفصيل عن قصة سيدنا نوح فتجدها تسع سور كما يلي: (1)

• أولاً : سورة القمر: (9-17): تأتي هذه الآيات في سياق عرض تكذيب أهل مكة للنبوّة، أهل مكة الذين كانوا كلما رأوا معجزة للرسول كذبوا وقالوا هذا سحر مستمر. وأتت السورة لتبين أن الذي منعهم من الإيمان ليس عدم قوة حجة المعجزات بل هي أبحرهم وأعجزتهم ولكن المانع كان اتباع الهوى.

وصف أهل مكة سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بالسحر والجنون، وهو عين ما وصف به قوم نوح نبيهم. فلا تحزن يا محمد، فأنت لست بدعاً من الرسل.. بل سينالك ما نالهم.

ثم ختمت القصة في السورة ببيان مصير قوم نوح (المؤمنين والكافرين).. وفي ذلك تهديد واضح لكفار مكة.

● ثانياً : الأعراف (59-64): جاءت الآيات في سياق استغراب المشركين في أن الله بعث بشراً نبياً، فجاءت الآيات تنعى عليهم استغرابهم في أن الله بعث فيهم رسولاً منهم. مبينة الحكمة من ذلك، وتبكيته لهم بأن الغريب هو ألا يكون كذلك.

والجديد في هذه الآيات هو سردها لجزء من الحديث الذي دار بين سيدنا نوح وقومه وتحديه لهم وتمسكه بعقيدته.. وهو ليس موجوداً في سورة القمر.

● ثالثاً : الشعراء (105-122): هذه السورة تتميز عن باقي السور بالحديث عن الشعر.. والشعر يحرك الوجدان ويلامس شغاف العواطف والشجون والمشاعر.

ومن يتتبع أسلوب مخاطبة سيدنا نوح قومه في هذه السورة يجدها قد غلب عليها الحس العاطفي، وفي ذلك زيادة فائدة على ما في السورتين السابقتين.

● رابعاً : سورة يونس (71-73): تسلط هذه الآيات الضوء على الأبعاد النفسية: ثقة سيدنا نوح بخالقه وحافظه. ويتمثل هذا بتحديه لهم بأنهم لن يستطيعوا أن يقتلوه.. وهذا لم يرد في قومه ورده عليهم في حوار عقلي منطقي، وكذلك حوار مع ابنه في السور الأخرى.

● خامساً : سورة هود (25-48): تختلف عن السور الأخرى بكونها أكثر السور التي فصلت الحديث في شبهات.

● سداساً : سورة الصافات(75-82): لم تتعرض هذه القصة للحديث عن إرسال سيدنا نوح أو حوار مع قومه.. بل كل ما فيها بيان نعم الله على نوح وما أكرمه به من منن.. أجملها بقوله: ﴿سَلَامٌ مِّنْ عَلِيٍّ نُوحِ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (79) ". وهذا واضح في مغايرته لجميع مواضع القصة في السور الأخرى.

● سابعاً : سورة نوح (كلها): والجديد فيها ذكر أساليب سيدنا نوح في الدعوة بالتفصيل (وهي عشر أساليب) والتفصيل الدقيق لما دعاهم إليه: العبادة، التقوى، وجوب طاعتهم له. والجديد فيها أيضاً أسماء أصنامهم..

● ثامناً : سورة المؤمنون (23-30): تتحدث السورة عن كيفية مخاطبة قومه بعضهم بعضاً، وسنة الله الكونية الثابتة في استهزاء المتبوعين بالأتباع، وأن طاعة الأتباع العمياء للمستكبرين ستهديهم إلى سواء الجحيم.

● تاسعاً : سورة العنكبوت (14-15): ﴿سَدَّ نَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرِينَ﴾ (15) ﴿وَجَعَلْنَا نَا نُوحًا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (14)

وهي آخر ما نزل من السور التي تحدثت عن قصته بشيء من التفصيل، وفيها تلخيص بديع لقصته.

ورغم كونها تلخيصاً للقصة، إلا أنها حملت جديداً وهي: مدة دعوته.

تلك كانت قصة سيدنا نوح متحدياً قومه، داعياً إياهم إلى الإسلام، ولنرى علاقة قصة نوح مع شخصية السورة القرآنية التي ذكرت فيها، سياق الآيات القرآنية التي ذكرت معها، والجديد في كل منها..

- سورة القمر: تتسم السورة بقصر الآيات وقوة النبرة في تقرير الكفار والمكذابين بالآيات.. بل كل السورة تدور حول قوله تعالى ﴿كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَذُرِّيَّةٍ﴾.
 - إيقاع القصة السريع يتناسب مع أول آية في السورة ﴿بَتِ السَّاعَةُ﴾ ولذلك تجد استخدام الفاء الدالة على التعاقب السريع ﴿فكذبوا عبدنا.. فدعا ربه.. فانصرف.. ففتحن أبواب السماء.. فالتقى الماء﴾.
 - الأعراف: تتحدث عن الإيمان وتركز على الإيمان بالرسول الذين كانوا من أكبر نعم الله على الناس. ومن نعمه أيضاً إمهال الكافرين ليتوبوا وجزاء المسلمين الثابتين على العقيدة الصحيحة.
 - يونس: تتحدث عن تعنت الكفار. ومن أسباب ذلك انزعاجهم من كون الله أرسل رجلاً منهم.
 - هود: هي سورة تتحدث عن الأهوال والشدائد وفيها بيان لمواقف الشدة والمصاعب التي كابدها سيدنا نوح فكان مثلاً على الصبر وخاصة فاجعته بابنه.
 - الصافات: تتحدث عن طاعة الملائكة والرسول والمؤمنين لخالقهم. ونعم الله التي اختص بها عباده الأنبياء.. وكان منهم سيدنا نوح.
 - نوح: كل السورة تتحدث عن قصته. والمميز فيها أنها كلها من أولها إلى آخرها محكية بلسانه.
 - المؤمنون: تتحدث عن صفات المؤمنين، وتعلل دوافع كثير من الناس في عدم الإيمان وأهمها وجود سادة القوم المنتفذين الذين يمنعون الناس عن الحق بلسانهم ومالهم وقوتهم...
- فالذي يحول بين هؤلاء الناس والإيمان هو خنوعهم وخضوعهم لسلطة المستكبرين وهؤلاء الذين وصفهم رسول الله بالإمعة.⁽²⁾

● العنكبوت: هي سورة الدعاة، تتحدث عن ركائز الدعوة ومقوماتها، مبتدئة ببحث الدعاة على الصبر وتحمل البلاء، فهذا نوح لم ير إلا أعواماً قليلة من الرخاء، وفي النهاية انتصر، وكانت العقبي له. إنه درس عظيم للدعاة بأن النصر مع الصبر، ولن يغلب عسر يسرين، واصبروا فإن العاقبة للمتقين.

هكذا يرى كل ذي عينين، أن ما تكرر من قصص القرآن الكريم لم يكن إلا لفائدة تتناسب مع سياق الآيات المذكورة فيه، وكانت القصة في مكانها الطبيعي في سياق الآيات دون تكلف، بل وحملت كل قصة جديداً في كل موضع ذكرت فيه.

المبحث الثاني: مسائل علم البيان في قصة نوح عليه السلام

● التشبيه: "التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه"⁽³⁾ ومنه قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ..﴾⁽⁴⁾.

● المجاز المرسل: "وهو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبه"⁽⁵⁾ وله علاقات كثيرة، ومنها مما ورد في السورة: إيقاع السبب وقع المسبب، وذلك في قَالَ قَوْلَهُ عَنَّا لِمَنْ ﴿الْيَوْمَ مَنْ أَمَرَ اللَّهُ إِلَّا مَنْ رَحِمَ...﴾⁽⁶⁾ فأُسند اسم الفاعل (عاصم) إلى ضمير المفعول، إذ المعنى: لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه. ومن علاقات المجاز المرسل التعلق الاشتقاقي. وهو إقامة صيغة مقام أخرى، ومنه إطلاق الفاعل على المفعول في قوله تعالى:

قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا
الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿7﴾ أي: معصوم من أمره. (8)

● الكناية: "وهي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما هو
ملزومه لينتقل من المذكور إلى المتروك" (9) ومنها قوله تعالى:
وَنَادَى دُوحٌ رَبِّهِ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ
وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿10﴾، فلم يجرؤ العبد الصالح وهو في

سفينته وسط الأمواج على الدعاء لابنه العاصي تصريحا بل
كنى بـ ﴿رب إن ابني من أهلي...﴾. ومن الكناية قوله
وَمَا نُرَاكُمَا لِلتَّيْبِ إِلَّا الْأَذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ... ﴿11﴾
فإن المشركين كنوا عن المؤمنين بـ "بادي الرأي" (12).

التعريض في قوله ﴿قال الملاء الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا
مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ (13) والغرض هنا من
التعريض بأنهم أحق منه بالنبوة وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد لجعلها
فيهم وقد زعم هؤلاء أن يحجوا نوحاً من وجهين أحدهما أن المتبعين أراذل
ليسوا قدوة ولا أسوة والثاني أنهم مع ذلك لم يتروا في اتباعه ولا أمعنوا
الفكرة في صحة ما جاء به وإنما بادروا إلى ذلك ارتجالاً ومن غير فكر ولا
روية. (14)

الاستعارة المكنية: قوله تعالى ﴿يَا أَرْضُ ائْبِطِي ائْبِطِي وَيَا سَمَاءُ ائْقَلِي ائْقَلِي
وَغِيضَ ائْمَاءِ وَفُضْيَ ائْمَرُ وَاَسْنُوتِ عَلَيَّ ائْجُودِي وَقِيلَ بَعْدًا لِّلْاَقْوَمِ
الظَّ ائْمِينِ﴾ (15)

فلاستعارة المكنية الكائنة في نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التحضيض والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله يا أرض و يا سماء ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله ابلعي ماءك واقلعي من الدلالة على الاقتدار العظيم والبلع عبارة عن تغدير الماء وشربه في بطنها مستعار لهذا المعنى من بلع الحيوان أي ازدراده لطعامه وشرابه والبلع هو أثر القوة الجاذبة في المطعوم لكمال الشبه بينهما وهو الذهاب إلى مقر خفي ومع هذا فهي قرينة للاستعارة المكنية التي في الماء أي استعارة الماء للغذاء لجامع تقوي الأرض بالماء في الإنبات تقوي الآكل بالطعام. (16)

الاستعارة التمثيلية:

• وتتمثل الاستعارة التمثيلية في سورة هود في قوله تعالى (يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَأَتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْ أَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) (17) ففي قوله تعالى عُمِّيَتْ (عَلَيْكُمْ) "شبه الذي لا يهتدي بالحجة لخفائها عليه، بمن سلك مفازة لا يعرف طرقها ومسالكها، واتبع دليلاً لأعمى فيها على سبيل الاستعارة التمثيلية (18)"

المجاز العقلي: قَوْلِكَ تَعَالَىٰ لِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا أَيُّومَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ صِلًا مِنْ رَّحِمٍ وَحَالٍ بَيْنَهُمَا الْأَمْوَجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (19)

لَا عَاصِمَ فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مِنْ رَّحِمٍ مجاز عقلي "فقد أسند اسم الفاعل عاصم إلى المفعول من رحم بمعنى: لا معصوم ومحفوظ من الغرق

إلا الذي رحمه الله ونجاه، على طريق المجاز العقلي الذي علاقته المفعولية، وقرينته الاستحالة العقلية؛ لأن الإنسان معصوم لا عاصم، إذ العاصم والحافظ من الغرق هو الله القوي القادر، وفيها خذلان الضالين، والتهكُّم من الكافرين المعاندين.

المبحث الثالث : مسائل علم المعاني في قصة نوح عليه السلام

• الخبر للوعيد :

(الخبر :إفادة المخاطب أمراً في ماضٍ أو مستقبل أو دائم) (20)، ويخرج

الخبر عن معنى الإفادة إلى معانٍ كثيرة منها : الوعيد كما في قوله تعالى ﴿فَلِدَوْفًا تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ خَيْرٌ نَذِيرًا وَيُحِرُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّؤِيمٌ﴾ (21)

• الخروج على خلاف الظاهر :

قال القزويني وكثيراً ما يخرج - الكلام - على خلافه. فيزل غير السائل

هزلة السائل، إذا قدم إليه ما يلوح له بحكم الخبر، فيستشرف له استشراف المتردد

الطالب. (22) كقوله تعالى ﴿وَإِلَّا لَذَلَّتْ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ (23)

ففي قوله ﴿مُغْرَقُونَ﴾ (مُغْرَقُونَ) جاء الخبر إنكارياً مؤكداً بـ "أن" تأكيداً للكلام وتقريباً

للسامع هزلة المتردد، لأنه للنفس اليقظي مظنة التردد في حكم الخبر ومثوونة

الطلب. (24) ومن خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر التعبير عن المستقبل

بلفظ المفعول لما لم يقع تنبيهاً على تحقيق وقوعه نحو قوله تعالى ﴿يَوْمَ مَجْمُوعٌ

لَهُ النَّاسُ﴾ (مكان " يجمع " . وذلك لأن الوصفين المذكورين حقيقة في الحال مجاز

فيما سواه. (25)

ومنه وضع الجمع موضع الواحد: وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ

هَٰذَاكَ إِنَّهُ لَيَصُولٌ مُّؤَيَّرٌ صَالِحٌ فَلَا تَسْأَلُنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ

تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (26) والغاية من عدم تعيين المخاطب "نوح" وجعله في الجماعة

"الجاهلين" الموصوفة بالجهل من وجوه البلاغة للإعراض عن مواجهة المخاطب "نوح"

عليه السلام بما يكره من الأوصاف إني أعظك أن تكون جاهلاً ، وهو دأب القرآن في

مخاطبة المرسلين⁽²⁷⁾، ومن وضع الجمع موضع الواحد قوله **تَعَالَى تِلْكَ لِيَّ** **عَذَابٌ جَدِيدٌ** **وَأَيَّاتٍ رَبَّهُمْ وَعَصَاؤُ رُسُلَهُ...**⁽²⁸⁾ (وسبب الجمع "رسله" مع أن المرسل إليهم واحد أن الأنبياء كلهم عليهم السلام أصل دعوتهم شيء واحد ولهذا كان من كذب ولحداً منهم فقد كذب جميعاً⁽²⁹⁾ .

• التعريف للتحقير :

المعرفة ما دلّ على شيء بعينه، ومن التعريف: العلمية، وذلك لإحضار المعرف بعينه في ذهن السامع ابتداء باسم مختص.⁽³⁰⁾ ومنه قوله تعالى **يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعُدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**⁽³¹⁾ ، (فسموه باسمه ولم يسمحوا بأن يقولوا له: يا ابن عمنا، مرة واحدة كما كرر لهم: يا قوم)⁽³²⁾ . ومنه قوله **تَعَالَى يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ...**⁽³³⁾ ، قال الشنقيطي: (نادوه باسمه وقاحة وعدم احترام)⁽³⁴⁾ . ومن التعريف باسم الإشارة للقريب⁽³⁵⁾ وغايته التحقير **وَقِيلَ يَا أُولِي الْأَبْصَارِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا...**⁽³⁶⁾

• التنكير للتقليل :

ومنه تنكير "سلام" في قوله **تَعَالَى يَا نُوْحُ فِي الْعَالَمِينَ**⁽³⁷⁾ ، فالسلام الملقى من قبل الله تعالى وإن كان قليلاً مغنٍ عن كل تحية. ولذا جاء نكرة،⁽³⁸⁾ .

• التنكير للتهويل :

ومنه قوله **سَتَأْتِيَنَّكُمْ نِعْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَكَلِمَةٌ مِّنْ يَّأْتِيهِمْ عِذَابٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَإِن لَّمْ يَدْعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنَّ عَذَابَهُمْ أَكْبَرُ**⁽³⁹⁾ حيث نكر "عذاب"⁽⁴⁰⁾ .

• نداء الإغراء :

(وهو تحريض المخاطب على أمر تحذيراً منه أو ترغيباً والترغيب ههنا الحث على تحصيل أمر حصل فجأة ويخشى فواته)⁽⁴¹⁾ ، ومنه قوله تعالى: **وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَرَّانًا فِيهَا بُنْيَ ارْ كَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ**⁽⁴²⁾

• الفصل :

هو ترك عطف بعض الجمل على بعض (43) ومثله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَادَيْنَا اللَّهَ رَبَّنَا لِيُرِيَنَا آيَاتِهِ﴾ (44)، فقد فصل بين الآيتين الكريمتين لأنه (لما تقدم من التخويف والإطماع ما هو فطنة لإقبالهم ورهبهم على التولي بخصوصه، فكان موضع أن يقال: (هل أقبلوا قليلاً؛ قال مبيناً أن التولي باطناً كالتولي ظاهرًا؛ لأن الباطن هو العمدة) (45) ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَادَيْنَا اللَّهَ رَبَّنَا لِيُرِيَنَا آيَاتِهِ﴾ (46)، وبنمقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَادَيْنَا اللَّهَ رَبَّنَا لِيُرِيَنَا آيَاتِهِ﴾ (47) ﴿لَقَدْ نَادَيْنَا اللَّهَ رَبَّنَا لِيُرِيَنَا آيَاتِهِ﴾ (48) ﴿لَقَدْ نَادَيْنَا اللَّهَ رَبَّنَا لِيُرِيَنَا آيَاتِهِ﴾ (49).

• المساواة :

"وهو أن يكون اللفظ بمقدار أصل المراد لا ناقصاً عنه بحذف ولا زكاً عليه" (50) ومثله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَادَيْنَا اللَّهَ رَبَّنَا لِيُرِيَنَا آيَاتِهِ﴾ (51) والماء وفُضِي الأمرُ وأسئلتُ على الجودي وقيل بعداً للآقوم الظالمين ﴿ (51).

• الإطناب

(وهو أداء الكلام من عباراتهم سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غير الجمل) (52)، ومنه ذكر قصة نوح - عليه السلام - مع قومه في السورة في أربع وعشرين آية، لتناسب مقام تثبيت فؤاد الرسول - صلى الله عليه وسلم - والتسلية والتأييد لئلا يضيق صدره بشيء عما أمر (بإبلاغه حرصاً على إيمان أحد. (53)

• الاعتراض :

وهو "اعتراض كلام في كلام لم يتم معناه ثم يعود إليه فيتممه" (54)، واشترط ابن منقذ أن لا تكون الجملة المعترضة زائدة بل يكون فيها فائدة. (55) ومنه قوله لا ينفَعُكُمْ نُصْحُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَفْتَرَاهُ قُلْ إِنْ أَهْلَقْتُمُونِي كَمَا نَبأَ لَوْلَا إِيَّاكُمْ لَفِئدٌ مَوْلَىٰ رَبِّكُمْ إِذْ أَنْتُمْ مَعَهُ يُخَفُونَ (56).

فاعترض بين آيات القصة بقوله: "قل إن افتريته..."(57) ، وقد جعل ابن مالك تقدير الآية: (إن أردت أن أنصحكم مراداً ذلك منكم لا ينفعكم نصحي ... من باب الاعتراض)(58). غير أن الزمخشري لم (يأت بلفظ الاعتراض في الآية بل سماه مرادفاً (59).

• التأكيد اللفظي :

(وهو تكرار اللفظ الأول إما بمفرده وإما بلفظه فيكون في الاسم والفعل والحرف والجملة). (60) ومن تكرار "يا قوم" في قوله تعالى: ﴿قال يا قوم أرأيتم ... ويا قوم لا أسألكم... ويا قوم من ينصرني ..﴾. وتكرر هذه اللفظة كل قليل تذكيراً لهم أنه منهم لتعطفهم الأرحام وتردهم القربات عن حسده أو اتهامه إلى قبول ما يلقي إليهم من الكلام(61). ومنه وقوله تعالى: ﴿يا بني في الذين ظلموا إنهم مغر قون إنهم آتيتهم عذاب غير مردود﴾ (62) ، فإذا دخلت إنَّ فإنها (ترتبط بما قبلها، وتأتلف معه، وتتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغاً وإفراغاً واحداً، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر... وهذا الضرب كثير في التثنية)(63).

ومن إيجاز القصر: الإحالة بالضمير إلى مضمون ما تقدم من قول فيكون الضمير تلخيصاً لهذا القول. (64) ، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ لَا يَأْتِي الْغَيْبَ دُونَ حُجَّتِهِ﴾ (65) إشارة إلى قصة نوح - عليه السلام - التي تقدم ذكرها في السورة.

صيغة الاستفهام

لجأ نوح - عليه السلام - إلى حثِّ قومه على التفكير عن طريق طرح الأسئلة، يَا قَوْمِ أَفَأَقَالُ فِيكُمْ إِنَّ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَنَا نَذِيرٌ لَّكُمْ فَاعْمَلُوا عَالَمًا أَلَّا تَكُونُوا مِّنَ الْخَالِفِينَ ﴿٦٦﴾. وأرأيتم معناها: أخبروني، والاستفهام للاستنكار(66). فعلى الرغم مما وجهوه إليه من كلام في محاورته لهم، إلا أنه يأخذهم بغاية الرفق واللين. وكأنه يقول لهم: افترضوا أن رسالتي التي أكرمني الله بها كانت بيّنة

ظاهرة، ولكنها خافية يت عليكم فلم تدركوها، فهل نكرهكم عليها إكراهاً؟ فالمعنى يمثّل أعمق الاطمئنان النفسي لهم، حيث يؤكد لهم حرية الاختيار في الدين، كما يقول القرآن في موضع آخر: **إِذْ رَأَوْهُ فِي الدِّينِ** (67) وهذا من شأنه أن يزيدهم اطمئناناً إن كان لديهم أدنى استعداد (68).

استخدام صيغة البناء للمجهول

لم يتهم نوح -عليه السلام- قومه بالعمى والضلال مباشرة، بل استخدم لذلك صيغة البناء للمجهول، فقال: **الَّذِينَ رَمَوْا مَعْنِي فَهَنَدِهِ فَعَمَّيْتُ** عليكم. وفي هذه الصيغة ما يشير إلى وضوح الرسالة التي جاء بها نوح، ومن شأن كل العقول أن تدركها، ولولا أن هناك حائلاً حال دون عقولهم لأدركوها، وهذا يمثّل غاية الرفق بمشاعرهم، والحرص على ألفتهم. فكأنه يقول لهم: أنا لا أتهمكم بعدم إدراك نبوتي، وإنما أتهم الذي حال بينكم وبينها فلم تدركوها. وهذا يدفعهم تلقائياً إلى التفكير والبحث عن هذا الحائل (69).

وصيغة البناء للمجهول أو عدم التصريح بصاحب الذنب أو المعصية، باب من أبواب أدب الحوار ينبغي أخذه بعين الاعتبار. بل بالمرء إذا وجد خطأً عند شخص ما، للألئك يبلططاً، ولكن بأسلوب حسن يغلب عليه التلميح لا التصريح. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خير قدوة لنا في ذلك، فقد عرف عنه أنه إذا وجد خطأً في بعض أفعال أصحابه أو أقوالهم، لا يصرح بأسمائهم ولا يشهر بهم على رؤوس الأشهاد، لعلمه بأن في ذلك خطورة على قلوبهم ونفوسهم، وأن عدم التصريح أحفظ لكرامتهم وماء وجوههم. والأمثلة على ذلك كثيرة، فمنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **ملا بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم؟ لئلا ينظروا؟** عن ذلك أو **لئلا يخطفن أبصارهم** (70).

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: **دع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً فترخص فيه، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه فكأنهم كرهوه وتنزهوه، فبدلناه ذلك،**

فقام خطيباً ، فقال: **إِذَا رَجَلٌ بَلَغَهُمْ عَنِّي أَمْرٌ تَرَخَّصْتُ فِيهِ فِكْرُهُ وَتَنَزَّهُوا عَنْهُ ، فَوَاللَّأَنَّا أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً** (71)» .

المبحث الرابع: المحسنات البديعية في قصة نوح عليه السلام

• الائتلاف:

"وهو أن تريد معنى من المعاني تصح تأديته بألفاظ كثيرة ولكنك تختار واحداً منها لما يحصل فيه من مناسبة ما بعده وملاءمته" (72). ومنه قوله

يَا تَعَالَى مَنْ قَبَّلَ عَنِّي مَاءَكَ وَيَا سَدَمَاءَ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْأَمْءَاءِ
وَقَضِي الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَيَّ الْجُودِيَّ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْأَقْوَمِ الظَّالِمِينَ
(73)

• ائتلاف اللفظ مع معناه:

وهو "أن تكون الألفاظ لائحة بالمعنى المقصود ومناسبة له" (74). ومنه قوله

تَعَالَى مَنْ قَبَّلَ عَنِّي الْجُودِيَّ (75) فقوله: "الجودي" "إشارة باسمه إلى أن الانتقام العام قد مضى، وما بقي إلا (الجود بالماء والخير والخصب والرحمة العامة" (76).

ومنه قوله تَعَالَى مَنْ سَدَّقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ (77). فإنه قد ذكرت عند سبق الضد واكتساب الشر، وفيها معنى القهر والاستعلاء. (78) كما أنه في قوله تعالى وَاسْتَوَتْ عَلَيَّ الْجُودِيَّ (79) قد أثر الاستواء على غيره ولم يقل: رست أو استقرت؛ لأن الاستواء يدل على معنى لا يدل عليه لفظ من نظير المذكورين، فالاستواء يدل على الاستقرار أو الرسو المطمئن مع اعتدال الوضع، أما الرسو والاستقرار فقد يكونان على غير وضع الاعتدال كأن ترسو السفينة أو تستقر وهي منكسة على الشاطئ. (80)

ومنه قوله تَعَالَى مَنْ قَبَّلَ عَنِّي مَوْجَ كَالْجُرْبَالِ... (81) فقد (شبهه الموج بالجبال في الضخامة والامتداد الشامخ، ومع هذا فإن سفينة نوح - عليه السلام - ظلت تمخر الماء في سلام، وتشبيهه الموج بالجبال التفاتة بيانية لأن المقام يقتضي إظهار نعمة الله وكيف نجى المؤمنين وسط الطوفان وتلاطم الأمواج (82).

ومنه قول تعالى ﴿يُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ لَوْلَا غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلُنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (83) قال الزمخشري "فإن قلت: فهلا قيل إنه عمل فاسد؟ قلت: لما نفاه عن أهله نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقى معها لفظ المنفي، وأذن بذلك أنه (إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم لا لأنهم أهلك وأقاربك" (84)

• الإبداع:

وهو أن تكون مفردات كلمات البيت من الشعر أو الفصل من النثر أو الجملة المفيدة متضمنة بديعاً بحيث تأتي في البيت الواحد والقرينة الواحدة عدة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جملة" (85)، ومنه قوله تعالى ﴿يَا أَرْضُ بَلْعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْأَمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (86)

• الاحتباك:

وسماه الزركشي "الحذف المقابلي وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحذف من واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه" (87) ومنه قوله تعالى ﴿يُولُونَ أَفْتَرَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرَمُونَ﴾ (88) قيل ﴿وَمِنْهُ أَقُولُ خُتَالِي﴾ (بِطُّ بِسَلَا كَمَاتِنَا وَعَبَلِيرِكْ وَعَلَى أَمِّ مَمِّنْ وَ أَمِّ مَمِّ سَنَمُ تَعْبُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مَمَّنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) (89)، فذكر البركات والسلام أولاً دليلاً على نفيهما تانياً وملتاع تانياً، دليلاً على حذفه أولاً (90).

• الاحتباس:

هو أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه فيه دخل فيفظن لذلك حال العمل فيأتي في أصل الكلام بما يخلصه من ذلك كما وقيل يَلْعَالِي هُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ

الْمَاءِ وَقَضِيَّ الْأَمْرِ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩١﴾⁽⁹¹⁾ في قوله: "وقيل بعداً للقوم الظالمين"،

احترس من توهم أن الهلاك بعمومه قد شمل من لا يستحق العذاب.⁽⁹²⁾

• الإرداف:

وهو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، ولا بلفظ الإشارة الدال على المعاني الكثيرة بل بلفظ هو ردف المعنى الخاص وتابعه، قريب من لفظ المعنى قرب الرديف من الردف.⁽⁹³⁾

ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَضُؤٌ أَيْبَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقَضِيَّ الْأَمْرِ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾⁽⁹⁴⁾ والإرداف هنا في قوله: "وقضي الأمر". وإنما عدل عن هذه الحقيقة وهي: (وهلك من قضى الله بملاكه، ونجا من قضى بنجاته) إلى لفظ الإرداف لما فيه من الإيجاز والتنبيه على أن هلاك الهالك ونجاة الناجي كان بأمر أمر مطاع، وقضاء من لا يرد قضاءه⁽⁹⁵⁾.

• الإرساد:

"وهو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز"⁽⁹⁶⁾ ومنهُ وَكَلَّمَ اللَّهُ مَلَأَهُ مَنَّ قَوْمَهُ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٩٧﴾⁽⁹⁷⁾

• براعة الطلب:

وهي أن يشير الطالب إلى ما في نفسه دون أن يصرح بالطلب، وذلك في قوله تَعَالَى: ﴿نُوحُ رَبِّهِ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي...﴾⁽⁹⁸⁾ إشارة إلى طلب النجاة لابنه⁽⁹⁹⁾.

• الترديد:

وهو (أن تعلق لفظة بمعنى ثم تردها بعينها وتعلقها بمعنى آخر)⁽¹⁰⁰⁾، ومنهُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾⁽¹⁰¹⁾.

• التصدير:

أو رد العجز على الصدر "وهو أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بما في أول الفقرة، والآخر في آخرها" (102) ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَدَّعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَدِينَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُوقِنُونَ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُونَ مِنْهُ فَمَا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ. حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ آثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ. وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بَنِي آدَمَ ارْكَبُوا مِنْ هَاهُنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُقْبِلِينَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ ﴿ (103) ، ويظهر التصدير في قوله تعالى: ﴿قَضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْنَوْتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (104) .

في قوله تعالى: ﴿تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا..﴾ ثم قوله: ﴿...بعداً للقوم الظالمين﴾ فوصفهم بالظلم ليرتد عجز الكلام على صدره.

• التضمين

وهو أن تضمّن فعلاً معنى فعل آخر ويكون فيه معنى الفعلين جميعاً (105) منه قولوا: ﴿يَعَالِقُ فَوْاْ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ...﴾ (106) أي : من يحميني.

• التنسيق:

(وهو أن يكرر الكاتب أو الشاعر شيئاً بجملة أسماء أو جملة صفات متواليّة) (107) وهو حسن النسق عند ابن أبي الإصبع ، ومنه قولهم: ﴿فِينُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقَضِيَ الْأَمْرُ...﴾ (108)

• التنظير:

هو (أن ينظر الإنسان بين كلامين إما متفقي المعاني أو مختلفي المعاني ليظهر الأفضل منهما)، ومنه وَقِيلَ تَعْلِيلًا: ﴿رَضُ ابْلِعِي مَاءِكَ وَيَا سَمَاءَ أَقْلِعِي وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَّ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْوَجُودِ يُعَدُّ لَلْأَقْوَمِ الظَّالِمِينَ﴾ (109). لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن وكل لفظة سهلة مخارج الحروف، سلمت من التنافر والغرابة ومخالفة القياس.

• التهذيب :

" وهو عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمله حتى تتكامل صحته وتروق بهجته " (110)

ومنه قوله تَوَالَيْتُ عَالِيًا: ﴿رَضُ ابْلِعِي مَاءِكَ وَيَا سَمَاءَ أَقْلِعِي وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَّ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْوَجُودِ وَيُقْبَلُ بُعْدًا لَلْأَقْوَمِ الظَّالِمِينَ﴾ (111)؛ لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن وكل لفظة سهلة مخارج الحروف، سلمت من التنافر والغرابة ومخالفة القياس.

• الجنس اللاحق:

" وهو أن يجمع بين كلمتين هما متجانستان لا تفاوت بينهما إلا بحرف واحد وهو وجهان: الأول أن يقع الاتفاق في الحروف المتقاربة... والثاني أن يقع في الحروف التي لا تقارب فيها... وما هذا حاله يقال له التجنيس اللاحق" (112)، ومنه قوله وَقِيلَ يَا أَرْضُ عَلَى ابْلِعِي مَاءِكَ وَيَا سَمَاءَ أَقْلِعِي وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَّ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْوَجُودِ وَيُقْبَلُ بُعْدًا لَلْأَقْوَمِ الظَّالِمِينَ (113). فالجنس اللاحق بين: (ابلي) و (اقلعي).

• الطباق :

" وهو الجمع بين متضادين أي: معينين متقابلين في الجملة." (114) ومنه قوله وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلِعِي مَاءِكَ وَيَا سَمَاءَ (115) فطابق بين السماء والأرض.

• مجازاة الخصم :

(وهي مجارة الخصم ليعثر بأن يسلم بعض مقدماته حيث يراد تبكيته وإلزامه) (116) ، ومنه قوله تعالى ﴿يَقُولُوا لَهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَائِي إِجْرَ امْرِئٍ وَآنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ﴾ (117)

فالمجارة في قوله: (فعلي إجرامي)، ومنه قوله تعالى ﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ وإنما أدخل نفسه معهم في ظاهر الكلام تنزلاً وهو من الأساليب البلاغية. (118)

• المشاكلة:

وهي "ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته" (119) ، ومنه قوله قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿خُذُوا مِرْيَاتٍ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ...﴾ (120) ؛ لأن سخرية نوح - عليه السلام - مسببة عن سخرية قومه به، وهذا أسلوب اقتضاه الحال لأن فاعل السخرية قمين بأن يسخر منه، ويكون أوقع في نفس الساهر ليقنع عما هو فيه (121).

• المناسبة اللفظية :

"وهي توحي الإتيان بكلمات متزنات" (122) ، ومنه قوله تعالى : ﴿قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءَ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ يَوْمِ الْوَعْدِ﴾ (123) فالمناسبة اللفظية بين: (ابلعي) و (اقلعي).

يقول الدكتور العتر في "الرسالة الخالدة": "ما رأيت ولا رويت في الكلام المنشور والشعر الموزون كآية في كتاب الله تعالى استخرجت منها أحداً وعشرين ضرباً من البديع، وعددها سبع عشرة لفظة وهي قوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾.

وتفصيل ما جاء فيها من البديع:

1. المناسبة التامة: في (ابلعي وأقلعي).

2. المطابقة اللفظية: في ذكر السماء والأرض .
3. الاستعارة : في قوله ابلعي واقلعي للأرض والسماء
4. المجاز : في قوله (يا سماء) فإن الحقيقة : ويا مطر السماء أقلعي.
5. الإشارة: في قوله (وغيض الماء) فإنه سبحانه وتعالى عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة؛ لأن الماء لا يغيظ حتى يقلع مكر السماء وتبلع الأرض ما يخرج من عيون الماء فينقص الحاصل على وجه الأرض من الماء.
6. الإرداف: في قوله (واستوت على الجودي) فإنه عبر عن استقرار السفينة على هذا المكان وجلوسها جلوساً متمكناً لا زيف فيه ولا ميل , لطمأنينة أهل السفينة بلفظ قرين من لفظ الحقيقة .
7. التمثيل : في قوله (وقضي الأمر) فإنه عبر بذلك عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ فيه بعد ما من لفظ الحقيقة بالنسبة إلى لفظ الإرداف.
8. التعليل : لأن غيظ الماء علة الاستواء.
9. صحة التقسيم: حين استوعب سبحانه أحوال الماء حالة نقصه، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض، وغيض الماء الحاصل على ظهر الأرض.
10. الاحتراس: في قوله: (وقيل بعداً للقوم الظالمين) محترساً من توهم من يتوهم أن الهلاك ربما عم من لا يستحق الهلاك فجاء سبحانه بالدعاء على الهالكين ليعلم أنهم مستحقوا الهلاك، فإن عدله منع أن يدعو على غير مستحق للدعاء عليه.
11. الانفصال : فإن لقائل أن يقول :إن لفظة القوم مستغنى عنها ، فإنه لو قيل : (وقيل بعداً للظالمين) لثم الكلام، والانفصال عن ذلك أن يقال :لما سبق في صدر الكلام قبل الآية قوله تعالى(وكلما مر عليه ملاً من قومه سخرؤا منه وقال سبحانه قبل ذلك مخاطباً لنوح عليه السلام:) ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون (فافتضت البلاغة أن يؤتى بلفظة القوم التي آلة التعريف

فيها للعهد، ليتبين أنهم القوم الذين تقدم ذكرهم في قوله تعالى ﴿وكلمنا مر عليه ماأ من قومه﴾ ووصفهم بالظلم، وأخبر بسابق علمه أنهم هالكون بقوله ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إهم مغرقون﴾ فحصل الانفصال عن الإشكال، وعلم أن لفظة القوم ليست فضلة في الكلام .

12. المساواة : لأن لفظ الآية لا يزيد عن معناه ولا ينقص عنه.
13. حسن النسق: في عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولاً فأولاً ، فإنه سبحانه أمر الأرض بالابتلاع ، ثم عطف على ذلك أمر السماء بالإقلاع ثم عطف غيض الماء على ذلك، ثم عطف على ذلك استواء السفينة على الجودي، ثم عطف على ذلك الدعاء على المهالكين، فجاء عطف هذه الجمل على ترتيب وقوعها في الوجود.
14. ائتلاف اللفظ مع المعنى : لكون كل لفظة لا يصلح في موضعها غيرها .
15. الإيجاز: لأنه سبحانه اقتصر القصة بلفظها مستوعبة ، بحيث لم يخل منها بشيء في أخصر عبارة ؛ بألفاظ غير مطولة.
16. التسهيم: لأن من أول الآية إلى قوله تعالى (قلعي) يقتضي آخرها.
17. التهذيب: لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن، كل لفظة سهلة مخارج الحروف ، عليها رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، والتركيب سليم التعقيد وأسبابه .
18. وحسن البيان: من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام، ولا يشكل عليه شيء منه .
19. التمكين: لأن الفاصلة مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها غير قلقة ولا مستدعاة .
20. الانسجام: وهو تحدر الكلام بسهولة وعذوبة سبك مع جزالة لفظ ، كما ينسجم الماء القليل مع الهواء .

21. ما في مجموع ألفاظ الآية من الإبداع ، وهو الذي سمي به هذا الباب، إذ في كل لفظة بديع وبديعان، لأنها كما تقدم سبع عشرة لفظة تضمنت أحداً وعشرين ضرباً من البلاغة سوى ما يتعدد من ضربها، فإن الاستعارة وقعت في موضعين: الابتلاع والإقلاع.

- * -

الهوامش والمصادر

- (1) السور الكريمة مرتبة بحسب ما رجحه د. فضل حسن عباس في الترتيب التاريخي لنزول السور، وهي: القمر، الأعراف، الشعراء، يونس، هود، الصافات، نوح، المؤمنون، العنكبوت.
لَا تَكُوفُوا (2) مَرَّةً تَقُولُهُ وَاللَّهِ إِنَّ أَحْسَنَ نَبَأٍ أَحْسَنُ نَبَأٍ، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمُوا وَمَلَكِينَ
إِنْ لَوْ ظَنُّوا أَنَّهُمُ الْمُنْتَلَسُونَ كُمْ أَن تَحُوسُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَالَا تَظْلَمُوا. رواه الترمذي في البر
والصلة باب ما جاء في الإحسان والغفوة (2007) وقطله من غريب لا نعرفه
إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .
- (3) العمدة لابن رشيق ، تحقيق : محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط ١٤٠٨ ، ١٠ هـ ١٩٨٨ م.
286/1
- (4) هود : ٤٢
- (5) الإيضاح، ص ٢٧٠
- (6) هود: ٤٣
- (7) هود : ٤٣
- (8) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة،
١٣٧٣ هـ (٢٥٨ . وانظر: معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب، ص / ٦٩، والبرهان ٢
/ ١٩٥٤ م ، ص ٢٢٧ ، وانظر: الطراز / ١ / ٥٩٧

- (9) مفتاح العلوم، ص ١٨٩
- (10) هود: ٤٥
- (11) هود : ٢٧
- (12) معارج الصعود ، ص ٢٠٧
- (13) هود : ٢٧
- (14) إعراب القرآن وبيانه، محمود درويش مكتبة المعارف، بيروت، ط ١٤١٤ ، ١ هـ ١٩٩٣ م. ،
ج 4 ، ص : 340
- (15) هود : ٤٤
- (16) إعراب القرآن وبيانه، محمود درويش مكتبة المعارف، بيروت، ط ١٤١٤ ، ١ هـ ١٩٩٣ م. ،
ج 4 ، ص : 367
- (17) هود : 28
- (18) الصابوني صفوة التفاسير ج 2 ص 30
- (19) هود : ٤٣
- (20) إعراب القرآن وبيانه، محمود درويش مكتبة المعارف، بيروت، ط ١٤١٤ ، ١ هـ ١٩٩٣ م. ،
ج 4 ، ص : 340
- (21) هود : ٣٩
- (22) الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني، تحقيق : محمد خفاجي ، الشركة العالمية للكتاب،
بيروت ، ط ٣ . ١٩٨٩ م ، ص ١٩
- (23) هود : ٣٧
- (24) انظر : المرجع السابق، ص ١٧٥ .
- (25) انظر : المرجع نفسه، ص ٢٦٢ ، والكشاف عن حقائق الترتيل ، تحقيق : محمد قمحاوي ،
مكتبة البابي الحلبي ، (٣٣٤ / القاهرة، ١٣٩٢ هـ ، : ١
- (26) هود: ٤٦
- (27) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل الآلوسي، إدارة الطباعة المنيرية،
القاهرة ، ١٢ / د.ت) ٢ .
- (28) هود : ٥٩

- (29) معارج الصعود إلى تفسير سورة هود، محمد الشنقيطي، جدة، ط ١٤٠٨، ١ هـ - ١٩٨٨ م، ص/ ١٥٠.
- (30) انظر: كتاب الطراز، يحيى العلوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م ٢.
- (31) هود: ٣٢
- (32) نظم الدرر 26/5
- (33) هود: ٩١
- (34) معارج الصعود، ص ٢٢٠
- (35) انظر: الإيضاح، ص ٩٧
- (36) هود: ١٨
- (37) هود: ٤٨
- (38) انظر: الكشاف: 202/2
- (39) هود: ٣٩
- (40) انظر: مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، أبو يعقوب المغربي ضمن شروح التلخيص، القاهرة، ١٩٧٣ م، ٢/٣١٥.
- (41) شرح التلخيص، البابرتي، ص ٣٦٧
- (42) هود: ٤٢
- (43) انظر: الإيضاح، ص ١٤٧
- (44) هود: ٤٥
- (45) نظم الدرر 503 / 3
- (46) هود: 26
- (47) هود: ٢٥
- (48) هود: ٢٩
- (49) والمثل السائر، ابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانه، دار النهضة مصر، 231/2
- (50) الإيضاح، ص ١٧٧
- (51) هود: ٤
- (52) المفتاح، ص ١٣٢. وانظر: معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب، ص ١٣٢
- (53) نظم الدرر، 520-519 / 3

- (54) البديع في نقد الشعر ، أسامة بن منقذ ، تحقيق : أحمد بدوي وحاتم ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ
١٩٦٠ م، ص ٥٩
- (55) انظر: المرجع السابق، ص ١٣٠
- (56) هود : 36
- (57) انظر: نظم الدرر، 529/5
- (58) البرهان، 371/2
- (59) انظر: الكشاف ، 307/2
- (60) انظر: معترك الأقران، 333/1
- (61) انظر: معترك الأقران، 333/1
- (62) هود: ٧٦
- (63) دلائل الإعجاز، ص ٣١٦
- (64) انظر: البيان في روائع القرآن تمام حسان ، عالم الكتب، القاهرة، ط ١٤١٣ ، ١ هـ _ ١٩٩٣
، ص ٥٣٧
- (65) هود: ٤٩
- (66) انظر: أبو السعود، محمد بن محمد العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،
(بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت)، ج4، ص221.
- (67) سورة البقرة: الآية 256
- (68) انظر: حفني، عبد الحلیم: أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، ص(77-78).
- (69) انظر: حفني، عبد الحلیم: أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، ص(77-78).
- (70) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الأذان، باب رقم 92، حديث رقم 717، ج1، ص261
- (71) مسلم: الجامع الصحيح، كتاب الفضائل، باب رقم 35، حديث رقم 2356، ج4،
ص1829.
- (72) وانظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ص ١١
- (73) هود : ٤٤
- (74) الطراز، 144/3
- (75) هود: ٤٤
- (76) نظم الدرر ، 534/5
- (77) هود: ٤٠

- (78) انظر: من بلاغة النظم القرآني ، ص ٦٨
- (79) هود: ٤٤
- (80) انظر: خصائص التعبير القرآني، عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١٤١٣، ١ هـ
١٩٩٢ م، 261/1
- (81) هود: ٤٣
- (82) البرهان للزركشي، 161/1
- (83) هود : ٤٦
- (84) الكشاف 312/2
- (85) تحرير التحرير، ص ١١٦
- (86) هود: 44
- (87) البرهان، الزركشي ، 129/3
- (88) هود: ٣٥
- (89) هود :
- (90) نظم الدرر ، 536/3
- (91) هود : ٤٤
- (92) انظر: تحرير التحرير، ص ٢٤٦ . ومعجم المصطلحات البلاغية ، أحمد مطلوب ، ص ٤٠
- (93) بديع القرآن، ص ٣٨ . معجم المصطلحات البلاغية ، أحمد مطلوب ، ص ٥٤ .
- (94) هود : ٤٤
- (95) انظر : الكشاف، 305/2.
- (96) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٣٤٧
- (97) هود : ٣٨
- (98) هود: ٤٥
- (99) انظر: جواهر البلاغة، ص ٣٤٣
- (100) التبيان في علم البيان ، ص ١٨٦
- (101) هود : 40
- (102) الإيضاح، ص ٣٩٠
- (103) هود: 44
- (104) هود : ٣٧

- 105 البرهان، 338/3
- 106 هود: ٣٠
- 107 حدائق السحر في دقائق الشعر للوطواط ، ترجمة : إبراهيم الشواربي، القاهرة، ١٣٦٤ هـ
١٩٥٤ م ص ١٥٠.
- 108 هود: ٤٤
- 109 هود : ٤٤
- 110 تحرير التعبير، ص ٤٠١
- 111 هود : ٤٤
- 112 الطراز، 367/2
- 113 هود : ٤٤
- 114 الإيضاح، ص ٣٣٤
- 115 هود : ٤٤
- 116 معترك الأقران 463/1
- 117 هود : ٣٥
- 118 معارج الصعود ، ص ٢٢٦
- 119 الإيضاح 493/2
- 120 هود: ٣٨
- 121 وانظر: معارج الصعود إلى تفسير سورة هود ، ص ١١٦
- 122 تحرير التعبير، ص ٣٦٣
- 123 هود : ٤٤.

* _ * _ *